طبيعة فهم القرآن الكريم في عصر النبوة

أ. شبايكي الجمعي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لم يرسل الله ـ ﷻ ـ محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقرآن العظيم لتتلى ترانيمه في المواسم والأعياد، ولا ليقرأ على المرضى والصرعى من جملة العباد، ولا ليقرأ على رؤوس الذين فارقوا دنيا الأعمال والأشهاد، بل انزله الله بحسب الوقائع والأحداث، ليغير به ما يحتاج إلى تغيير من عادات وتقاليد جاهلية فاسدة، وكلما نزلت نازلة أو جدت واقعة نزلت آية أو آيات تناقش تلك الحادثة أو تعالج تلك القضية، قال تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ (الاسراء:106).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ (الفرقان:32 ـ 33).ولذا لم يكن في بداية أمره يحتاج إلى كثير درس وتمحيص لكي يفهم منه ما يراد من أوامر أو نواهي أو ترغيب أو ترهيب، كما هو الأمر في أنواع الكتب الأخرى، وإنما كان فهم المسلمين آنذاك فهما ميدانيا بسيطا، لا يحتاجون معه إلى قواعد منطقية ولا إلى قضايا فلسفية، ذلك لأن القرآن الكريم كان يسير معهم في حياتهم الاعتيادية طوال مدة نزوله التي دامت ثلاثة وعشرون سنة، زخرت كلها بألوان مختلفة من الأزمات الروحية والاجتماعية والسياسية والعسكرية وغيرها، وكانت هذه النوازل تحتاج في مجملها إلى علاج وتوجيه، فتنزل الآيات لتنتقد بعض الأفكار والمفاهيم الجاهلية، وتناقش انحراف العقائد المختلفة، وتضع الحلول المناسبة للمشاكل الاجتماعية في قالب خاص ومميز من المفاهيم والأفكار الحديثة.

هكذا حصل فهم القرآن في عصر النبوة على أساس الأحداث والوقائع لا على أساس الدراسة والتفقه، وبطريقة تدريجية سمحت لعامة المسلمين في ذلك العصر أن يفهموه، حيث شكل جزءا من حياتهم الاجتماعية اليومية، ساعدهم في ذلك أيضا ما لديهم من عوامل وخبرات حاصلة، اكتسبوها في مجرى حياتهم العادية ويمكن تلخيصها فيما يلي:

1. الملكة اللغوية:فالقرآن نزل باللغة العربية قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:2)

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ (طه:113)

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء:195)

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت:3)

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف:3)

واللغة العربية هي لغة المسلمين في ذلك العصر، لم يكن قد أصابها تحريف أو تصحيف بعد، واستعمل القرآن أسلوب الحقيقة والمجاز والتصريح والكناية، والإيجاز والإطناب، على نمط العرب في كلامهم

هذا الواقع اللغوي منح المسلمين آنذاك فهما لغويا بسيطا للقرآن الكريم بحسب ما تسمح به معاني الألفاظ وتراكيبها وعملت فيه الملكة اللغوية السليمة دورا هاما في فهم القرآن، دون البحث عن معاني الألفاظ لفظة لفظة، وإعراب الكلمات، ووجه ارتباط الألفاظ بعضها ببعض...الخ.

2. تفاعل المسلمين مع الأحداث وأسباب النزول:فالقرآن نزل في أكثر الحالات مصححا أو موجها أو مقرا لحادثة معينة استلزمت نزول الوحي، ولما كان المسلمون قد عايشوا نزول الوحي وعرفوا وجه ارتباطه بتلك الأحداث التي شهدوا ظروفها وملابساتها، أثر ذلك فيهم فهما إضافيا لمحتوى النص القرآني وأهدافه، وهذه الخبرة اختص بها جيل الصحابة دون غيرهم من المسلمين، ولذلك اجتهد بعض العلماء والباحثين في جمع أسباب النزول لما لمسوه من شدة الحاجة إليها في فهم نصوص القرآن الكريم، وكشف الغموض الذي يكتنف بعض آياته، حتى قال الواحدي " لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها"[1] وقال ابن تيمية: " معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"[2].

3. معرفة عادات وتقاليد العرب وانطباعهم بها:قلنا سابقا أن القرآن جاء لتغيير المجتمع الجاهلي إلى مجتمع جديد، وعملية التغيير هذه تتطلب محاربة وإلغاء بعض العادات والتقاليد وتعزيز بعض منها وتوجيه بعض آخر، والعرب بحكم ظروفهم الاجتماعية المتشابهة إن لم نقل الواحدة كانوا على دراية بهذه العادات والتقاليد، وبالتالي إذا نزل الوحي مصححا لها من الطبيعي أن يفهموا قصده وهدفه كما هو الحال مثلا في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ (البقرة: من الآية189) فمن لا يعرف عادة العرب في الجاهلية، لا يستطيع أن يفهم هذا النص الكريم على وجهه الصحيح، فقد ورد أن أناسا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحدهم منهم حائطا ولا دارا ولا فسطاطا من

باب، فإن كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته، يدخل ويخرج منه وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء[3]، فنزلت الآية تبين أن هذه العادة ليست من البر والتقوى في شيء.

4. دور الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في عملية فهم القرآن: إضافة إلى الخبرات الثلاث المذكورة سابقا والحاصلة بحكم التفاعل مع الواقع، وجد عامل آخر ساهم بشكل فعال في فهم ألفاظ القرآن وإدراك مراميه وأهدافه، هذا العامل تمثل في ذاته الشريفة ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فكان يباشر تفسير القرآن في مجرى الحياة الاعتيادية للمسلمين، ويجيب على أسئلة بعضهم الآخر، ويباشر منصب الأستاذ والمعلم والمربي بكل ما تحمله هذه الألفاظ من معاني ودلالات، فكان تفسيره شاملا لكل ما جاء في القرآن من عبادات ومعاملات ومعتقدات وكل ما يتعلق بالمجتمع الإنساني، ابتداء من الأسرة إلى الجماعة إلى الأمة وعلاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة المسلمين بغيرهم من الأمم في الحرب والسلم.

والحاصل أن سنة الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وسيرته تمثل القمة المثلى لهذه المرحلة، فكلها موضحة وشارحة للقرآن الكريم، سواء كانت تلك السنة قولية أو فعلية أو تقريرية، ولعل الذين ذكروا أنه فسر كل آيات القرآن الكريم قصدوا هذا، وإلا فالثابت عنه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ كتفسير صريح للقرآن الكريم هو كما ذكرت أم المؤمنين عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ نزر يسير حيث أخرج البزار عنها أنها قالت: " ما كان رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يفسر شيئا من القرآن إلا آيا بعدد علمه إياهن جبريل"، ووفق هذا التصور وبعيدا عن الخوض في درجة الحديث أو نقده، لا أرى أي تناقض بين من أثبتوا أنه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فسر

القرآن كله والذين قالوا أنه فسر شيئا يسيرا منه، فالاتجاه العملي الذي أثر عن النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في التفسير هو السمة الغالبة في هذه المرحلة، حيث نجد سنة الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بيانا عمليا تستهدف تفصيل المجمل في القرآن وتوضيح المشكل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وفق ما تقتضيه طبيعة المقام وحال المخاطب، فالناس تتفاوت مراتبهم في الوعي والمستوى العقلي، إضافة إلى أن العرب ما كانوا يعرفون التعمق الفلسفي ولا الاستقصاء الفكري الدقيق..

وهكذا فإن التفسير النبوي للقرآن الكريم بشقيه العملي والقولي يمثل جوهر التفسير بالمأثور، وأساس التفسير بصفة عامة عند كل المفسرين.

هذه العوامل والخبرات في جملتها تحكمت في طبيعة الفهم ونوعه في العصر النبوي وعصر الصحابة عموما، مشكِّلة فهما بسيطا للقرآن يسير مع الأحداث المتغيرة للمسلمين ويمتزج بحياتهم اليومية، ولئن كان من الطبيعي أن يفهم النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ القرآن جملة وتفصيلا، فإن الصحابة كانوا يتفاوتون في فهمهم للقرآن بحسب تفاعلهم مع تلك العوامل والخبرات سواء من حيث إحاطتهم بأساليب اللغة العربية وغريبها أو من حيث معايشتهم لأسباب النزول وعلمهم بها، أو من حيث ملازمتهم للمصطفى - صلى الله عليه وسلم - ورجوعهم إليه، وحرصهم على الاستفادة من مجالسه.

ولدينا عدة نصوص تثبت تفاوت فهم الصحابة للقرآن الكريم.

أخرج الحاكم في المستدرك على الصحيحين عن ابن شهاب أن أنس بن مالك رضي الله عنه أخبره أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ﴿أَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً﴾ (عبس:27 ـــ31)

قال: فكل هذا قد عرفناه فما الأب ثم نقض عصا كانت في يده فقال هذا لعمر الله التكلف اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه[4].

وأخرج البيهقي عن مجاهد عن ابن عباس قال كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ﴾ (الأنعام: من الآية14) حتى آتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أنا ابتدأتها(5).

وأخرج ابن أبي شيبة عن قتادة عن ابن عباس قال: ما كنت أدري ما قوله: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ (لأعراف: من الآية89) حتى سمعت بنت ذي يزن تقول تعال أفاتحك[6].

وهذا عدي بن حاتم يقع في حيرة حين يحاول أن يفهم ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة: من الآية187) [7].

هذا وإن فهمهم لم يكن تفصيليا دقيقا بل ميدانيا بسيطا، فالصحابة والعرب بصفة عامة كان بإمكانهم فهم القرآن الكريم ألفاظا وتراكيبا، وأظن أن ابن خلدون قصد هذا بقوله: " أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"[8]،وهذا الكلام صحيح إلى حد بعيد، فالعرب أقدر الناس على فهم كلام الله، وأما نقد حسين الذهبي[9] له وكذا باقر الصدر[10] وغيرهما لا نسلم بصحته جملة، فما نزل القرآن إلا بلسان العرب وفي زمن أسمى ما بلغته الفصاحة العربية، فخاطبهم بما يفهمونه، وتحداهم بما يتذوقونه ويستشعرونه ولكنهم لا يستطيعون الإتيان بمثله، وجهل بعض الصحابة بألفاظ قليلة جدا كالواحدة والاثنتين أو الثلاث والتي ربما تكون غير مستعملة في

قبيلة ما، ويجري استعمالها في قبائل أخرى[11]، كما تشهد لذلك بعض النصوص من أن ابن عباس لم يكن يعرف معنى (فاطر) أو أن عمر بن الخطاب لم يكن يدري ما (التخوف) حتى تبين لهما معناهما من عرب آخرين[12]،لا يكفي في الرد على ابن خلدون ، خاصة إذا علمنا أن رأيه تدعمه نصوص كثيرة تصل إلى حد الاستفاضة، تشير في مجملها إلى استجابة العرب للدعوة ودخولهم في دين الإسلام لمجرد سماعهم عددا من آيات القرآن الكريم، ولو كانوا لا يفهمونها لتطلب شرحها عند قراءتها لهم، وهذا لم يثبت ولو في رواية واحدة، وغيره ثابت بروايات كثيرة حتى في تأثر النجاشي لسماعه آيات من سورة مريم.

ثم إن القول بعدم فهم ألفاظ القرآن الكريم ينافي التوسيع على الأمة في نزول القرآن على سبعة أحرف، إذ الحكمة منها تيسير قراءته وفهمه على السواء

وليت شعري كيف يقدم تفسير الصحابة على غيرهم من التابعين وأتباع التابعين، إن كانوا لا يفضلونهم في اللغة والبيان؟ قال الزركشي: " ينظر في تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده"[13]، وقال الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره: " وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم"[14]، وهذا ما مال واطمأن إليه الذهبي نفسه[15] وكذا غيره من علماء التفسير والشريعة عند حديثهم عن قيمة تفسير الصحابة ـــ رضوان الله عليهم ـــ.

ولست أدري إلى أي مدى يمكن الوثوق بالتفسير اللغوي للصحابة إذا نحن شككنا في فهمهم ورميناهم بضيق أفق علمهم بلغتهم التي نزل بها القرآن؟

ولست أدري كيف يقع التحدي بالإتيان بمثل القرآن في فصاحته وبلاغته لقوم لا يفهمون حتى ألفاظه وتراكيبه؟

لعمري إن هذا ليفضي إلى التخبط والتناقض.

وخلاصة ما أقوله في هذه المسألة أن العرب جملة لا يستوون في فصاحتهم وبلاغتهم واتقانهم لفنون اللغة، وليسوا متساوين في الفصاحة ولا في إدراك المعاني ولا في نظم الشعر، ففيهم المكثر من نظم الشعر وفيهم المقل وفيهم من لا ينظم ولا بيتا واحدا، وكذلك أدرك بعض الكفار إعجاز القرآن حين سمعه فأسلم للوقت وآخر أدرك إعجازه فكفر ولج في عناده، وآخر لم يدرك شيئا من ذلك.

والحال أنهم كانوا قبائل مختلفة بعضها انتهت إليها الفصاحة وسلمت لغاتها من الدخيل ويسرها الله لذلك ليظهر آيته بعجزها عن معارضة ما أنزل إليهم، "هذه القبائل هي الموجودة في وسط جزيرة العرب في الحجاز ونجد وتهامة التي لم تطرقها الأمم، ولعل أهل البصرة والكوفة ممن تجردوا لحفظ لسان العرب لم يأخذوا إلا من هذه القبائل الوسيطة المذكورة ومن كان معها وتجنبوا اليمن والعراق والشام فلم يكتب عنهم حرف واحد، فأما اليمن وهو جنوبي الجزيرة فأفسدت كلام عربه خلطة الحبشة والهنود، وأما ما والى العراق من جزيرة العرب وهي بلاد ربيعة وشرقي الجزيرة فأفسدت لغتها مخالطة الفرس والنبط ونصارى الحيرة وغير ذلك، وأما الذي يلي الشام وهو شمالي الجزيرة وهي بلاد غسان جفنة وغيرهم فأفسدها مخالطة الروم وكثير من بني اسرائيل، وأما غربي الجزيرة فهي جبال تسكن بعضها هذيل وغيرهم وأكثرها غير معمور فبقيت القبائل المذكورة سليمة اللغات لم تكدر صفو كلامها أمة من العجم"[16]، وهم الذين فهموا ألفاظ القرآن واستشعروا مبلغ فصاحته ودقة معانيه فأسلموا من أول سماع له، غير أن هؤلاء أيضا حصل بينهم

تفاوت في فهم القرآن ولكن من جهة أخرى، حيث أننا نلمس تفاوتا حقيقيا عند الصحابة في فهم دلالات الألفاظ وأهدافها عندما نتجاوز الفهم الظاهري ومجرد الوقوف عند الألفاظ والتراكيب ، هذا ما تثبته جملة من النصوص:

روى البخاري من أن عدي بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (البقرة: من الآية187) وبلغ من أمره أن أخذ عقالا أبيضا وعقالا أسودا، فلما كان بعض الليل، نظر إليهما فلم يستبينا، فلما أصبح أخبر الرسول بشأنه، فعرض بقلة فهمه، وأفهمه المراد.فهذا ليس جهلا بالألفاظ بل بالدلالات[17].

ومثله ما روي عن عمر أنه يجلد شارب الخمر أربعين جلدة، "حتى أتي برجل من المهاجرين الأولين وقد كان شرب فأمر به أن يجلد فقال لم تجلدني بيني وبينك كتاب الله ﷻ فقال عمر ــرضي الله عنهــ في أي كتاب الله تجد أني لا أجلدك فقال إن الله تعالى يقول في كتابه﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:93) فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا شهدت مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بدرا والحديبية والخندق والمشاهد فقال عمر رضي الله: عنه ألا تردون عليه ما يقول؟ فقال بن عباس: إن هذه الآيات أنزلت عذرا للماضين وحجة على الباقين لأن الله ــ ﷻ ــ يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ (المائدة: من الآية90) ثم قرأ حتى أنفذ الآية

الأخرى (ومن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا) فإن الله ــ ﷻ ــ قد نهى أن يشرب الخمر، فقال عمر رضي الله عنه: صدقت فماذا ترون؟ فقال علي ــرضي الله عنه ــ نرى أنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى وعلى المفتري ثمانون جلدة فأمر عمر ــرضي الله عنه ــ فجلد ثمانين"[18].

وكذا ما رواه البخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: " كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد من نفسه، وقال: لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاه ذات يوم فأدخلني معهم فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليريهم فقال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر:1) فقال بعضهم: أمرنا أن نحمده ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم و لم يقل شيئا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول: قلت: هو أجل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (النصر:3) فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول"[19].

فهذه النصوص وأكثر ما يستندون إليه في الرد على ابن خلدون، تثبت تفاوت الصحابة في فهم الدلالات وليس الألفاظ والتراكيب.

وحتى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان الغالب على تفسيره بيان بعض المصطلحات القرآنية والدلالات المقصودة منها، مثاله: ما رواه مسلم عن أبي هريرة "أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال لصحابته: ثم أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس

فينا من لا درهم له، ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار"[20].

فمعنى كلمة مفلس كلفظة لغوية عربية معلومة لدى الصحابة بدليل جوابهم عن سؤال معناها، وإنما خفي عنهم المعنى الاصطلاحي الشرعي الذي بينه لهم المصطفى ــ صلى الله عليه وسلم ــ.

ومثله ما جاء عن أبي سعيد الخدري من تفسير الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لكلمة "وسطاً" في قوله تعالى: ﴿وكَذلك جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ (سورة البقرة: الآية143)، قال "والوسط العدل"[21].

وكذلك ما روي عنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ في تفسير معنى الكوثر[22]، وأمثلة هذا النوع كثيرة لا تحصى.

وفي ذلك يقول الزركشي: "واعلم أن من المعلوم أن الله تعالى إنما خاطب خلقه بما يفهمونه ولذلك أرسل كل رسول بلسان قومه وأنزل كتابه على لغتهم وإنما احتيج إلى التفسير لما سنذكر بعد تقرير قاعدة وهي أن كل من وضع من البشر كتابا فإنما وضعه ليفهم بذاته من غير شرح وإنما احتيج إلى الشروح لأمور ثلاثة:

أحدها كمال فضيلة المصنف فإنه لقوته العلمية يجمع المعاني الدقيقة في اللفظ الوجيز فربما عسر فهم مراده فقصد بالشرح ظهور تلك المعاني الخفية ومن هنا كان شرح بعض الأئمة تصنيفه أدل على المراد من شرح غيره له

وثانيها قد يكون حذف بعض مقدمات الأقيسة أو أغفل فيها شروطا اعتمادا على وضوحها أو لأنها من علم آخر فيحتاج الشارح لبيان المحذوف ومراتبه

وثالثها: احتمال اللفظ لمعان ثلاثة كما في المجاز والاشتراك ودلالة الالتزام فيحتاج الشارح الى بيان غرض المصنف وترجيحه وقد يقع في التصانيف ما لا يخلو منه بشر من السهو والغلط وتكرار الشيء وحذف المهم وغير ذلك فيحتاج الشارح للتنبيه على ذلك.

وإذا علمت هذا فنقول: إن القرآن إنما أنزل بلسان عربي مبين في زمن أفصح العرب وكان العرب الذين لم يتطرق إليهم دخيل اللغات الأخرى يعلمون ظواهره، وأما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر من سؤالهم النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الأكثر كسؤالهم لما نزل ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ (الأنعام: من الآية82) فقالوا أينا لم يظلم نفسه ففسره النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالشرك ...وغير ذلك مما سألوا عن آحاد منه[23].

فلم يكن فهم القرآن في هذه المرحلة في حاجة إلى الدرس والتمحيص بل كان فهما ميدانيا بسيطا، بساطة حياة البدوي العربي، خط حدوده ووضح أهدافه صاحب الرسالة ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورسمت معالمه الأحداث والوقائع، فشكل جزءا من حياة الناس الاجتماعية بمختلف ألوانها الروحية والسياسية والعسكرية وغيرها، وبفضل ذلك كله كان القرآن في عصر الرسالة قريباً إلى عقول الناس وأفهامهم وإن تفاوتت تلك الأفهام في درجة المعرفة والإدراك للأهداف والدلالات.

الهوامش:

(1) ــ السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول، ط. دار إحياء العلوم،(بيروت)، ص13.

(2) ــ ابن تيمية أحمد أبو العباس الحراني: رسائل وفتاوى ابن تيمية، مقدمة التفسير: ط. مكتبة ابن تيمية، ت: عبد الرحمن محمد قاسم النجدي، ج 13/ 339.

(3) ــ انظر مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني محمد عبد العظيم: ، ط. دار الفكر (بيروت)، الطبعة الأولى: 1996م، ت: مكتب البحوث والدراسات، ج201/2.

(4) ــ الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين ، ط. دار الكتب العلمية(بيروت)، 1411هـ/1990م، الطبعة الأولى، ت. مصطفى عبد القادر عطا. كتاب التفسير، تفسير سورة عبس، ح3897 ،ج2/ 559.

(5) ــ البيهقي أبو بكر: شعب الإيمان، ط. دار الكتب العلمية (بيروت) 1410هـ ، الطبعة الأولى، ت. محمد السعيد بسيوني زغلول. ح 1682، ج2/ 258.

(6) ــ ابن أبي شيبة أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي: مصنف بن أبي شيبة، ط. مكتبة الرشد (الرياض)، الطبعة الأولى: 1409هـ، ت: كمال يوسف الحوت.ح26076، ج280/5. وفي رواية: (حيء أفاتحك) ح29984، ج122/6.

(7) ــ البخاري محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، ط. دار ابن كثير (بيروت)، الطبعة الثالثة: 1407هـ/1987م، ت: مصطفى ديب البغا، باب قول الله تعالى: وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ح1817، ج2/ 677،

(8) ــ ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، ط. دار القلم (بيروت)، الطبعة الخامسة: 1984م، ص 438.

(9) ــ الذهبي محمد حسين: التفسير والمفسرون، ط. آوند دانش للطباعة والنشر(بيروت)، الطبعة الأولى:1425هـ/ 2005م، ج1:/26.

(10) ــ مجموعة محاضرات في علوم القرآن ألقاها بكلية أصول الدين في بغداد.

(11) ــ راجع سبب جهل بعض الصحابة ببعض ألفاظ القرآن الكريم في فصل نزول القرآن على سبعة أحرف من مقدمة تفسير الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، ط. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت)، ج1/14.

(12) ــ انظر الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي جلال الدين، ط. دار الفكر(بيروت)، الطبعة الأولى: 1423هـ/2003م، ج1/161، وأخرج الفريابي عن ابن عباس قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعا: (غسلين) و (حنانا) و (أواه) و (الرقيم). المصدر نفسه.

(13) ــ الزركشي محمد بن بهادر أبو عبد الله: البرهان في علوم القرآن، ط. دار المعرفة (بيروت): 1391هـ، ت:محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1/ 172.

(14) ــ ابن كثير إسماعيل بن محمد أبو الفدا: تفسير القرآن العظيم، ط. دار النشر (بيروت)، 1401هـ، ج1/ 4.

(15) ــ الذهبي: التفسير والمفسرون: ج1/66.

(16) ــ انظر مقدمة تفسيرالمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي أبومحمد عبد الحق بن غالب:ط. دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى 1413هـ/ 1993م، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، ج1/46، وكذا مقدمة تفسير الجواهر الحسان في تفسير القرآن: الثعالبي ج1/ 14ــ15.

(17) ــ سبق تخريجه.

(18) ــ رواه الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري: في المستدرك على الصحيحين، ط. دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى: 1411هـ/ 1990م، ت: محمد عبد القادر عطا، ح: 8182، ج4/417. وقال فيه: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه

(19) ــ رواه البخاري في صحيحه، باب دخول النبي - رضي الله عنه - من أعلى مكة، ح4038، ج4/1562.وكذا في كتاب التفسير، باب قوله: (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا). ح:4686، ج4/1901.

(20) ــ رواه مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: في صحيحه، ط. دار إحياء التراث العربي (بيروت)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ح2581، ج1997/4.

(21) ــ البخاري: الجامع الصحيح، كتاب التفسير: باب وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا، ح4217، ج1632/4.

(22) ــ انظر تفسيرها في الجامع الصحيح للبخاري، كتاب التفسير: باب تفسير سورة إنا أعطيناك الكوثر الكوثر، ج1899/4ــ 1900.

(23) ــالزركشي: البرهان في علوم القرآن : ج1/ 14.